الكهربائية» التي تحتل موقع المرأة ــ الغسّالة وتحرمها من العمل. لا تطرح هذه القصة علاقة الانسان بالآلة، فمثل هذه العلاقة لا دلالة لها في شرطنا الاجتماعي الحسير، لكنها تطرح وضع الانسان الفقير الأعزل والباحث عن لقمة العيش بلا كفاءات وبلا مواهب، والذي لا يبحث، في عريه الكامل، عن عمل فقط وإنما يقوم ايضاً بتسويق جهده العضلي وتبخيس هذا الجهد بلا حدود. مع ذلك، فإن هذه القصة تطرح امراً آخر هو: حدود الوعي الاجتماعي ودلالة الآلة لديه، فالمرأة ــ الغسّالة تحقد على الآلة وتمنحها في وهمها صفات عدوانية معقدة، والطريف في الامر ان موقف المرأة من الآلة يعيد ولكن في شرط اجتماعي مغلق موقف العامل الاوروبي من الآلة في النصف الاول من القرن الماضي. وهذا يعني ان الانسان المضطهد في زمانه المراوح لا يعيش بؤس الحياة فقط بل يعيش بؤس الوعي ايضاً، لهذا فإن المرأة ــ الغسّالة ترتعش عندما تتقدّم للتعامل مع «الآلة الجديدة»: «وارتعشت اطرافها وهي تفكر في هذه المغامرة... ولكنها لم تشأ ان تتراجع.. وظلّت عيناها معلّقتين بلهفة في وجه الرجل»(٧). تعود إلينا ثنائية البؤس والحرمان في قصة: «بنك الدم» التي تدخلنا في عوالم «الدم الرخيص» وفي ملامح من يبيعون دماءهم من اجل قروش قليلة، وقد يطاردهم سؤ الطالع فيعجزون عن ممارسة تجارة الموت البطيء: «روحي اكبري عشر سنوات اخرى قبل ان تعرفي هذه التجارة، فأنت طفلة... واستدارت نعمت لتنصرف وهي تحمل رأساً اثقلته رائحة العقاقير». تقترب الكاتبة في قصتها من اجواء «يوسف ادريس»، الذي كتب بدوره قصة نظيرة ولكن بشكل آخر بالتأكيد.

تحكي قصة «طالعة نازلة» حكاية الطفولة المهانة والمحرومة، وقد اجادت سميرة في سرد حكاية الطفولة الناقصة، فأعطت احدى اجمل قصصها، واكثرها إحساساً ونبلاً، فكأنا بها لا ترصد الحرمان من خارجه، بل تتسلّل إلى ضمير المحروم، فترى الدنيا بعينيه، وتشاركه طعم الحياة المالح واسى الابواب الموصدة، والقصة في نبلها عادية وبسيطة، إنها حكاية الطفل الذي يراقب دمية اعجبته في حانوت، إلى ان تختفي الدمية، وتختفي معها نظرات الطفل المترقّبة: «كانت تكلّمني وعيناها على حانوت اللعب الذي كان ما يزال مغلقاً، فلمحت فيهما قلقاً لم يزايلهما إلا حين انفرجت دفّتا الباب وتلون الشارع بالواجهة المرحة»(٨).

من يرسم الانسان والحياة في مدار متفائل، لا بد ان يعطي مداره معنى، والمعنى عند سميرة عزام هو العمل، وفي هذا المعنى، فإن الكاتبة تدخل في «الحسّ السليم»، وتدرك ان العمل ينتج اشياء جديدة ويعيد إنتاج الانسان في لحظة العمل، وفي الدفاع عن وحدة الانسان والحياة والعمل، فإن الكاتبة تمنح وعيها الاخلاقي بعداً واقعياً، او لنقل ان وعي الكاتبة يشي من جديد بلا تكافؤ مركّباته، وتداخل «الواقعي» والاخلاقي فيها. لذا، فإننا قلنا ان وعي الكاتبة يعيش تناقضه الخاص، فهو تارة وعي اخلاقي ينزع إلى الواقعية، وهو في حين آخر وعي «واقعي» ينزع إلى الاخلاقية. ويمكن ان نقول إن هذا الوعي، في شكليه المترابطين والمتناقضين، كان قادراً على التقاط دلالة العمل، وإن كانت الدلالة تنوس بين الغائم والواضح. فلقد كتبت سميرة عن وحدة العمل والانسان في: «سأتعشى هذه الليلة، بائع الصحف، صبي الكواء، نافخ الدواليب، واسباب جديدة...».